

وضعية الآثار بمنطقة وادي ريغ الجنوب الشرقي الجزائري

أ. علي حملاوي

جامعة الجزائر

تعد منطقة وادي ريغ من المناطق الغنية بالمواقع الأثرية، وهي بذلك تعد أرضا بكرا للدراسات الأثرية. وتتمثل هذه الآثار في مواقع تعود إلى فترات ما قبل التاريخ والقرى ذات الطابع التقليدي أو ما تعرف بالقصور. وتدخلنا هذا يمكن في التعريف بهذه المنطقة ووضعية آثارها التي ما يزال جلها لم يحظ بالتصنيف لئلا نقول بالدراسات المعمقة، نخص بالذكر منها تلك القصور السائرة في طريق الزوال.

إن كلمة وادي ريغ، أو أريغ حسب المصادر الاباضية، مصطلح يطلق على المنطقة المنخفضة الواقعة في الجنوب الشرقي الجزائري. تبعد عن العاصمة بحوالي 550 كلم أو 600 كلم، وتمتد على مسافة تقدر بحوالي 130 كلم، أي من حوالي 30 كلم جنوب تقرت (بلدة عمر)

إلى أهله فجاء بعجل سمين» (5) أو فراغ إلى أهله فقال ألا تأكلون» (6) ويعني فعل راغ هنا مال في خفية (7). وهي نفس الصيغة التي تكون قد أطلقت على الوادي بعدما اختفى وحاد عن مجراه. وتتفق هذه النظرة مع ما أورده الروايات الشفوية أن كلمة وادي ريغ تعني الوادي المدفون. ويعود سبب دفنه إلى عقاب أرسله الله جزاء على المنكرات والمعاصي المقترفة من لدنهم.

وتشتهر المنطقة بوفرة مياهها ونخيلها منذ القدم. ويقول ابن سعيد واصفا إياها بأنها بلاد نخل ومحمضات ومياه تنبع على وجه الأرض فيصعد كالسهم إلى أمد طويل ويسبح في المزارع. وهي نفس الظاهرة التي تحدث عنها منذ العصور القديمة كل من سترابون وبلين خلال القرنين الأول والثاني ميلادي. فيتحدث الأول عن شعوب تدعى بـ: (Les Pharusiens) و (Les Maures) وهما أقوام كانت تجوب مناطق مملوءة بالمستنقعات والبحيرات في اتجاهها إلى سيرتا (8)، ثم من بعده يتحدث بلين عن شعب آخر يسمى بـ: (Les Amientes أو Hammaniens) تحيط به الكثبان الرملية من جميع الجهات. وكانوا يجدون الماء على عمق ذراعين (1م) ويبنون بيوتهم بحجارة من الملح (10). هو ما ذهب إليه الرحالة الألماني في حديثه عن المنطقة التي زارها في المنتصف الثاني من القرن 19م حيث يقول: «ومما يثير الدهشة في الصحراء كمية المياه الكثيرة التي تكمن في جوفها. فما يكاد المرء يحفر حفرة عميقة إلى حد ما، حتى تظهر للعيان كمية كبيرة من الماء لا يمكن أن تتوفر في أوربا في خمس آبار ارتوازية (11).

إلى شط مروان (قرب اورير) شمالا أنظر الخرائط. أما مواقعها الفلكية فتتراوح ما بين 33.133 و 33.553 شمالا بالنسبة لخط العرض و 5.947 و 6.074 شرقا بالنسبة لخط الطول. ولقد تضاربت الآراء حول اشتقاق هذه الكلمة. فياقوت الحموي مثلا يرى بأنها كلمة بربرية معناها السبخة ومن يكون منها يقال له ريغي (1). أما ابن خلدون فيرى أنها نسبة إلى القبيلة الزناتية بنو ريغة، حيث يقول في هذا الشأن: «وأما بنو ريغة فكانوا أحياء متعددة. ولما افترق أمر زناته تحيز منهم إلى جبل عياض ... ونزل أيضا الكثير منهم ما بين قصور الزاب ووار كلا، فاخطوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم قد رف عليها الشجر، ونضدت حفافيفها النخيل، وانساحت خلالها المياه وزهت ينابيعها الصحراء وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد، وهم أكثرها، ومن بني سنجاس وبني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة» (2).

ويرى العدوانى أنها نسبة إلى رجل يقال له باهوت بن شملخ بن كعب بن غاوية، ومن ولد أندلس بن يافث بن نوح (3).

والسؤال المتبادر إلى أذهاننا هو كيف تنسب المنطقة إلى قبيلة واحدة دون سواها، رغم وجود عدد كبير من القبائل كانت موجودة هناك مثل قبل قبيلة بني ريغة. وحسب اعتقادنا أن تسمية المنطقة يمكن أن تكون مشتقة من كلمة ريغ (ج. رياغ) وهو التراب وقيل التراب المدقق (4)، أم من فعل راغ كما جاء في القرآن الكريم: «فراغ

ولقد كان عنصر الماء من أهم الدوافع التي جعلت هؤلاء القبائل يستفرون بهذه المنطقة، علاوة على ما يتوفر عليه من أماكن مرتفعة يسهل الدفاع عنها. ولذلك نلاحظ أن معظم قصور منطقة وادي ريغ بنيت على سفوح الجبال مثما هو الحال بقصر تمرنه الجديدة أو على قممها مثل قصر تمرنة القديمة ووغلانه وسيدي راشد وتماسين وبرنوبه.

وسوف نقتصر في تدخلنا هذا على ذكر نماذج من هذه القصور مع التركيز على أهميتهم التاريخية والحالة الموجودين عليها الآن.

1 - قصر مستاوة:

يقع بمدينة تقرت، ويعد من بين القصور الأكثر قدما بالمنطقة والذي كان إلى وقت قريب في حالة جيدة كما يعتبر من النماذج الفريدة التي حافظت على طرازها المعماري القديم وما يمتاز به من تغطية عبر كامل شوارعه. غير أنه لم يسلم من بطش المجتمع نتيجة جهلهم لقيمة هذه التحفة مما جعلهم يبادرون في تحطيمه على مرأى من الجميع وتحت حجة واهية هي أن أصبحت تشكل خطرا على سكانيه.

وكم من معلم فقد تحت هذا الغطاء. وبذلك تحطم قصر مستاوة تحت الجرافة دون أن نحس بأننا نقتلع جزء من جذورنا وأصالتنا. فقصر مستاوة لا يعني اطلاقا بنايات مهدمة بقدر ما يحمل أكثر من دلالات كونها تمثل مرحلة تاريخية من تاريخنا وتاريخ المنطقة بصفة خاصة على أنها، شأنها شأن بقية العالم الاسلامي، كانت تعيش

فترات صراع بين القبائل المتجاورة وهو ما يترجمه مصطلح مستاوة أي الأجانب بالنسبة للآخرين. كما تمثل نموذجا حيا للعمارة الصحراوية وتترجم مدى العبقرية التي بلغ إليها المعماري المحلي للتصدي للظواهر الطبيعية. وبصفة خاصة عامل الحرارة والرياح.

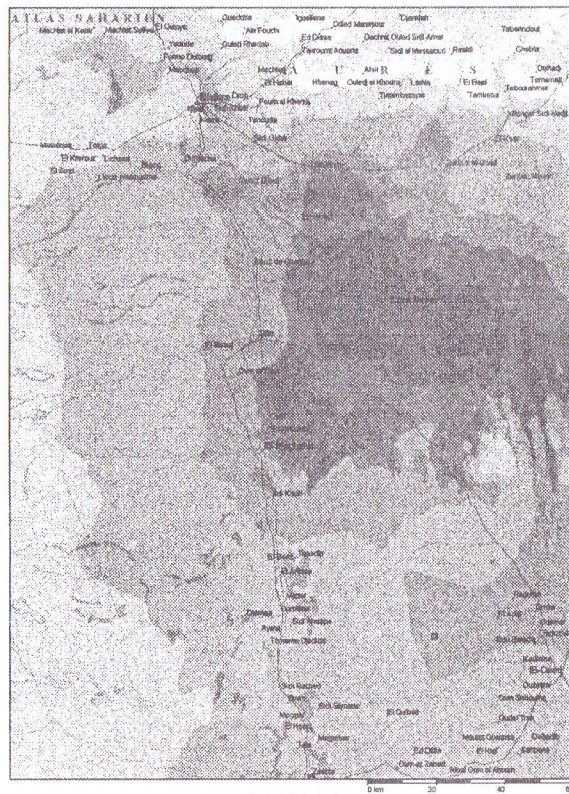
قصر برنوبه:

يقع هذا القصر جنوب بلدة سيدي عمران. ويعتبر في نظرنا حلقة مفقودة يتطلب البحث فيها بكل جدية. ذلك أن الروايات الشفوية، المصدر الوحيد الذي لا زالت تذكره، تؤكد على أنه يمثل قصرا بني من طرف سكان قصر أسفاوا الذي يبعد عن الأول بحوالي 20 كلم. غير أننا نرى بأنه يمثل همزة وصل بين السلطة العثمانية بقسنطينة وبين أهالي منطقة وادي ريغ. ودلينا على ذلك التفسير الإيتمولوجي للكلمة، بالإضافة إلى تخطيطه والمساحة التي يشغلها وكذا مواد بنائه الضخمة حيث بلغ طول حجارتها ما بين 60 سم / 34 سم و 74 سم / 45 سم أما سمك جدارها فيبلغ 70 سم. فهي إذ ذاك تدل على أنه بناية دفاعية أكثر من أي شيء آخر. أما حالته الراهنة فيرثى لها نظرا لبعده المفرط نوعا ما مما جعله عرضة للخراب دون أن يعبروه أدنى اهتماما.

قصر اسفاو:

يقع هو الآخر على بعد كيلومترات شمال قرية تمرنه الجديدة. وسمي بهذا الاسم نسبة إلى موقعه المنخفض لم يبق من آثاره المغمور

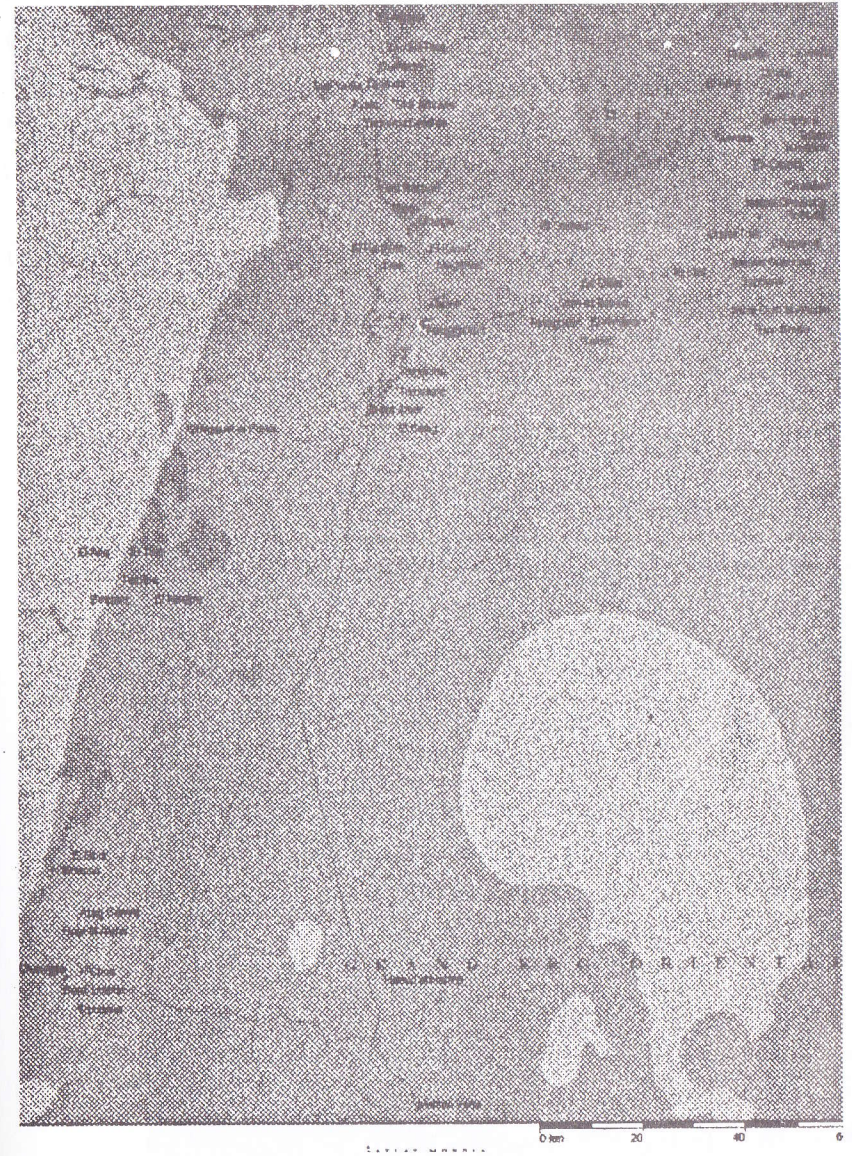
- وضعية الآثار بمنطقة وادي ريغ



كانت هذه نظرة خاطفة عن بعض المعالم التي تزخر بها منطقة من مناطق جنوبنا الكبير، أردنا من خلالها أن نلفت أنظار المهتمين إلى هذا النوع من المباني باعتبارها على حد قول الباحثين صورة لابتداع البربر الهندسي، ونماذج حية للجغرافية البشرية والعمرانية للمناطق الصحراوية.

الهوامش:

- (1) - الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، المجلد 3، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص 113.
- (2) - ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر ... المجلد 7، دار الكتاب اللبناني، 1959، ص 98.
- (3) - العدوانى (محمد بن عمر)، تاريخ العدوانى .. تحقيق وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامى، 1996، ص 138.
- (4) - ابن منظور، لسان العرب.



وادي ريغ